الدرة الفاخرة في التعليق على منظومة

السير إلى الله والدار الآخرة

العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
المتوفى سنة ١٣٧٦هـ رحمه الله

اعتنى بها علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي الأثري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعنه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يُضلل فلا هاديَ له.

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله وحدَه لا شريك له.

وأشهدُ أنّ محمداً عبدُهُ ورسولُه.

أمّا بعدُ:

فهذه ((منظومةٌ)) أخلاقيةٌ تربويةٌ مُختصَرَةٌ ((في الحثِّ على عبادةِ الله، ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه، وفي الحثِّ على سلوكِ الطريقِ المُوصِلِ إلى دارِ السلام))[1].

وعنوانُ هذه (المنظومة) يَدُلُّ على محتواها ومضمونِها: ((السَّيْر إلى الله والدَّار الآخِرة)).

وناظمُها هو العلاّمةُ الفقيهُ الأُصوليُّ المُفسِّر الشيخُ عبد الرحمن بن ناصر السَّعدي، رحمه الله تعالى.

ولقد فَرَغَ الناظمُ – رحمه الله – من منظومتِه هذه بتاريخ ٣ شعبان سنة ١٣٣٣ هـ – أي: قبل أكثر من ثمانين عاماً –، وقد كان عُمُرُهُ – حينذاك – ستَّةً وعشرين عاماً[2].

---

1 – ((الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهودُه في توضيحِ العقيدةِ)) (ص ٦٣) تأليف الأخ الفاضل الدكتور عبد الرزاق العبَّاد، وفَقَهُ الله للسَّداد.

2 – المرجع السابق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولّما كان للناظمِ نفسِه – رحمه الله تعالى – تعليقٌ مُوجَزٌ على منظومتِه – طُبع معها – رأيتُ أن أُسَمِّيَ هذا التعليقَ – مع النّظم – اسماً ينطبقُ عليه، ويَهدي إليه، هو ((الدُّرَّةُ الفاخِرَة في التعليق على منظومة السَّيْر إلى الله والدَّار الآخِرَة)).

ولقد كانَ عَمَلي في إعادةِ نشرِ هذه ((الدُّرَّة الفاخِرَة)) مُتَوَجِّهاً إلى: ضَبْط نصِّها، وتخريج أَحاديثها، والتعليقِ عليها، وتقويم ما اختلَّ – بسبب الطبعِ[٣] – من نظمِها.

فالله أَسأَلُ التوفيقَ والسَّداد، والهدى، والرشاد، وأَن ينفعني وجميعَ العباد.

وكتب

أبو الحارث الحلبيُّ الأثريُّ

الخميس في ١٤ رمضان ١٤١٧ هـ

مُوجز ترجمة الناظم

---

3 – ثم رأيتُها في أواخر رمضان (١٤١٧ هـ) –في مكة– مطبوعةً طبعةً جديدةً. دون أيِّ جُهد علميٍّ، بل بتكرار الأخطاء والأغلاط.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- **اسمه:** عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن حَمَد آل سعدي.
- **مولده:** وَلِد في عُنَيزة من أَعمالِ القَصيم، بتاريخ ١٢ محرّم سنةَ ألفٍ وثلاثٍ مئةٍ وسبعٍ للهجرةِ.
- **نشأتُهُ:** نشأَ الشيخُ عبد الرحمن – رحمه الله – في كَنَفِ والِدِه نشأةً تربويّةً صالحة، لكنَّ الله – سبحانه – توفّاه قبل أن يبلغَ ولدُه سنّ العاشرة.

فعاشَ – بعدُ – برعايةِ أخيه الأكبر حَمَد، فوجّهه الوجهةَ العلميّة التي وفَّرَتْ له التحصيل القويَّ، والإدراكَ الجيِّدَ، والدراسةَ الدائبةَ.

- **شيوخه:** تلقّى العلمَ على عددٍ من كبار المشايخِ وأهلِ العلمِ المعروفين، منهم:

١. الشيخ إبراهيم بن حَمَد بن محمد بن جاسر، أخذَ عنه التفسيرَ، والحديثَ، وأُصولَها.
٢. الشيخ محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم بن صالح الشِّبل، أخذَ عنه الفقهَ، والأُولَ، وعلوم اللغةِ.
٣. الشيخ صالح بن عثمان بن حَمَد بن إبراهيم القاضي أخذَ عنه التوحيدَ، وغيرَه.
٤. الشيخ إبرايهم بن صالح بن إبراهيم القحطاني، أخذَ عنه التوحيدَ.
٥. الشيخ محمد الأمين محمود الشنقيطي، أخذ عنه التفسيرَ، والحديثَ، وعلومَ العربيّة.

- **أعماله ووظائفه:** تولّى في بَلْدتِه الوعظَ، والإمامةَ، والإفتاءَ، وغيرَ ذلك من القضايا التي تهمُّ إخوانَه وأبناءَهُ، وتنفعُهم.

أسَّسَ – قبل أكثر من نصف قَرْنٍ – مكتبةً علميَّةً ضَخْمةً، تضُمُّ نفائسَ الكتبِ في سائرِ الفنونِ العلمِ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عُيِّنَ سنةَ (١٣٧٣ هـ) مُشرِفاً على المعهدِ العلميِّ في عُنيزةَ.

- **مؤلَّفاتُه:** كثيرةٌ، من أهمِّها:

١. بهجة قلوب الأبرار.

٢. توضيح الكافية الشافية

٣. التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه الواسطية من المباحثِ المنيفة.

٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان

٥. منهج السالكين

٦. الفتاوى السعديّة

. . . وغيرها.

- **وفاتُهُ:** توفِّي –إلى رحمةِ الله تعالى– قبلَ طلوعِ فجرِ يوم الخميسِ الموافق ٢٣ جمادى الآخر سنة ١٣٧٦ هـ، قبلَ بُلُغِهِ السبعين.

- **مصادر ترجمته، في:**

١. روضة الناظرين (١/ ٢١٩) للشيخ القاضي

٢. علماء نجد (٢/ ٤٢٢) للبسّام

٣. مشاهير علماء نجد (٣٩٢) للقاضي

٤. الأعلام (٣/ ٣٤٠) للزركلي.

٥. معجم المؤلفين (٣/ ٣٦٩) لكحّالة.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولقد كُتِبت عنه –رحمه الله – دراساتٌ مفصّلةٌ، حولَ دعوتِه، وعلمِه، وجهوده، وأثرِه، أبرزها وأجودها دراسة الأخ الدكتور عبد الرزاق العبّاد، وهي جدّ نافعة، فجزاه الله خيراً.

الدُّرَّةُ الفاخِرَة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ، وآله وصحبه أجمعين:

هذا تعليقٌ لطيفٌ على (منظومتي) في السير إلى الله والدار الآخرة، يَحُلُّ معانيَها، ويوضّحُ مَبانيَها، فإنها قد حصّلت على كبيرٍ من منازل السائرين إلى الله، التي تُوصِلُ صاحبَها إلى جنّات النعيم في جوار الرَّب الكريم، وتمنعُهُ من عذاب الجحيم والحجاب الأليم.

واللهُ المسؤولُ – بفضله ومنّه – أنْ يجعلَه خالصاً لوجهه، مقرّباً عندهُ.

العبادة

واعلم أنّ المقصودَ من العبادةِ: عبادةُ الله، ومعرفتُهُ، ومحبّتُهُ، والإنابةُ إليه على الدّوام، وسلوكُ الطُّرُق التي تُوصِلُ إلى دار السلام.

وأكثرُ الناسِ غلبَ عليهم الحِسُّ، ومَلَكَتْهم الشهواتُ والعاداتُ، فلم يرفعوا بهذا الأمرِ رأساً، ولا جعلوه لبنائهم أساساً، بل أَعرضوا عنه اشتغالاً بشهواتهم، وتكوهُ عُكوفاً على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مُراداتِهم، ولم ينتهوا لاستدراك ما فاتَهم في أوقاتهم، فهم في جهله وظُلمِهم حائرونَ، وعلى حظوظ أَنفسهم الشاغلة عن الله مُكِبُّونَ، وعن ذكر ربِّهم غافلونَ، ولمصالح دينهم مُضَيِّعون، وفي سُكْرِ شقِ المألوفات هائمونَ، (**نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** [الحشر: ١٩])[٤].

ولم يتنبَّه من هذه الرَّقدة العظيمة، والمصيبة الجسيمة إلاَّ القليلُ من العُقلاء، والنادرُ من النُّبلاء، فعلموا أنّ الخسارةَ كلَّ الخسارة الاشتغالُ بما لا يُجدي على صاحبه إلاّ الوَبال والحرمان، ولا يُعوّضُه ممّا يُؤمِّلُ إلاّ الخسران، فآثروا الكاملَ على الناقص، وباعوا الفانيَ بالباقي، وتحمّلوا تعبَ التكليف والعبادة، حتّى صارتْ لهم لذّةَ وعادة، ثمَّ صاروا بعدَ ذلك سادة، فاسمعْ صفاتِهم، واستعنْ بالله على الاتِّصاف بها:

١. سَعِد الذين تجنَّبوا سُبُل الرَّدَى*** وتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوَانِ

- هذا هو أَصلُ طريقهم، وقاعدةُ سير فريقهم:

إنَّهم تجنَّبوا طُرُقَ الخُسران، وتيمَّموا طُرُقَ الرّضوان.

4- قال المصنِّفُ- رحمه الله – في(تيسير الكريم الرحمن) (٧/ ٣٤٣):

((والحِرمان كل الحِرمان، أن يَغفل العبدُ عن هذا الأمرِ، ويُشابِهَ قوماً نَسُوا الله، وغَفَلوا عن ذكرِهِ والقيامِ بحقِّهِ، وأقْبَلُوا على حظوظِ أنفسِهم وشهَواتِها، فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائلٍ، بل أَنساهم اللهُ مصالحَ أنفسِهم، وأغفَلَهم عن منافعِها وفوائدِها، فصار أمرُهم فُرُطًا، فرجعوا بخسارةِ الدارين، وغُبِنُوا غُبْنًا، لا يمكنُ تداركُهُ، ولا يُجْبَرُ كَسْرُهُ، لأَنهم هم الفاسقونَ، الذين خرجوا عن طاعة ربِّهم وأوضعوا في معاصيه)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تجنّبوا طرقَ الشيطان، وقصدوا عبادةَ الرحمن.

تجنّبوا طُرقَ الجحيم ، وتيمّموا سبلَ النعيم

تركوا السيئات، وعملوا على الحسنات.

نزَّهوا قولبَهم وألسنتَهم وجوارحَهم عن المحرَّمات والمكروهات، وشغلوها بفعل الواجبات والمُستحبَّات.

تحلَّوا بالأخلاق الجميلة، وتخلَّو من الأوصاف الرّذيلة.

٢. **فَهُمُ الّذينَ قد أَخلصوا في مَشْيِهم*** مُتَشَرِّعين بِشِرْعَةِ الإيمانِ**

- هاتان القاعدتان – وهما: الإخلاصُ والمُتابعةُ – شرطٌ لكلّ عبادةٍ ظاهرةٍ وباطنة[٥]، فكلُّ عملٍ لا يُرادُ به وجهُ الله فهو باطلٌ، وكلُّ عملٍ لا يكونُ على سُنَّة رسول الله فهو مردودٌ، فإذا اجتمعَ للعمل الإخلاصُ للمعبود – وهو أنْ يُرادَ بالعمل وجهُ الله وحدَه –، والمتابعةُ للرسول – وهو أنْ يكونَ العملُ قد أُمِرَ به – فهذا هو العملُ المقبولُ.

٣. **وَهُمُ الَّذينَ بَنَوْا منازلَ سَيرِهم*** بينَ الرَّجاء والخوفِ للديَّانِ**

- أي: ساروا في جميع أُمورهم مُسْتَصْحِبينَ ومُلازمين للخوف والجاء، وذلكَ أنَّ

---

5 – وفي كتاب (العُبودية) لشيخ الإسلام ابن تيمية بيانٌ تفصيليٌّ لِهاتين القاعدتَيْن.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لهم نظراً، أي: نظرٌ إلى أَنفسهم وتقصيرهم في حقوق الله: يُحدِثُ لهم الخوفَ، ونظَرٌ إلى مِنَن الله عليهم، وإحسانه إليهم: يُحدِثُ لهم الرجاءَ -.

وأيضاً، ينظرونَ إلى صفات العظمةِ والجلالِ، والحكمةِ والعدلِ، فيخافونَ على أنفسِهم من ترتُّبِ آثارِها، وينظرونَ إلى صفاتِ الرحمة والجود والكَرَم والإحسان، فيرْجونَ ما تقتضيه: فإنْ فعلوا حسنةً، جمعوا بينَ الخوف والرجاء، فيرجونَ قَبولها، ويخافونَ ردَّها.

وإن عملوا سيئةً، خافوا من عقابها، ورَجَوْا مغفرتَها بِفَضْلِ الله، فهم بينَ الخوف والرجاء يتردَّدونَ، وإليهما دائماً يفزَعونَ، ومنهما في أمر سيرهم متردِّدونَ، فأُولئك الذينَ أحرزوا قَصَبَ السَّبْق، وأُولئكَ هم المفلحونَ.

٤. وَهُمُ الذيـــنَ مَلَأ الإلــهُ قلوبَهـم*** بودادِه ومحبَّــة الرحمـنِ

• هذه المنزلةُ – وهي منزلةُ المحبّة[٦] – هي أَصلُ المنازل كلّها، ومنها تنشأُ جميعُ الأعمال الصالحة، والأَعمال النافعة، والمنازل العالية.

ومعنى المحبّة: تعلُّقُ القلب بالمحبوب، ولزومُ الحبّ للقلب، فلا تنفكّ عنه، [وهي] تقتضي من صاحبها الانكفافَ عن ما يكرهُ الحبيبُ، والمبادرة إلى ما يُرضيه بقلبٍمنشرحٍ، وصدرٍ رحيبٍ، فإنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بالله، وإنْ سَكَتَ سكتَ لله، وإنْتحرَّكَ فللّه، سَكَنَ فلهُ، ويَحْدُثُ عن الحبّ الشوقُ إلى الله، والقلقُ، فلا يكادُ صاحبُهُ يستقرُّ[٧].

---

6 – قال العلامةُ ابنُ القيّم في (مدارج السالكين) (٣/ ٨):

((وهي المنزلةُ التي فيها تنافَسَ المُتنافسونَ، وإليها شَخَصَ العاملون، وإلى عَلَمِها شَمَّرَ السابقون، وعليها تَفَانَى المُحِبُّون، وبِرَوْحِ نَسيمِها تروَّحَ العابدونَ، فهي قوتُ القلوبِ، وغِذاءُ الأرواحِ، وقُرَّةُ العيون)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنِ قيلَ: فهل للمحبّةِ- التي هي أعلى المراتب- من وسيلةٍ وسببٍ؟

قيلَ: لم يجعل اللهُ مطلباً إلاّ جعلَ لحصوله سبباً، فمِن أكبر أسبابها الانكِفَافُ عن كلّ قاطعٍ[٨] بالقول والفعل والأفكار الديّة، والإكثارُ من ذكر الله بحضور قلبٍ، وتدبُّر كلامِه الكريم، مُطالِعةً نِعَمَهُ العظيمةَ على العبد، وبالوقوف بينَ يديه بحضور قلبٍ، وأَدَبٍ في الوقوف بينَ يديه، ومجالسة المُحبّين، ومجانبة كلّ قاطع[٨]، فَمَن فَعَلَ ذلكَ نالَ محبّةَ الله – إن شاء اللهُ –، واللهُ المُستعانُ.

ولهذا قلتُ:

٥. وهُـمُ الّذيـنَ أكثـروا من ذكـرِهِ*** في السرّ والإعلان والأحيانِ

• منزلةٌ شريفةٌ، حاجةُ كلّ إنسان إليها- بل ضرورتُهُ إليها – فوقَ كلّ حاجةٍ، فذِكرُ الله[٩] هو عمارةُ الأوقات، وبه تزولُ الهمومُ والغمومُ والكُدوراتُ، وبه تحصلُ الأفراحُ والمسرَّاتُ، وهو عِمارةُ القلوب المُقفِرات، كما أنَّهُ غِراسُ الجنّات، وهو مُوصِلٌ لأعلى

7- وذلك بسبب ما يقيمُ عليه نفسَه من عملٍ، ومُجاهدةٍ، ودعوة. . .

8- أي: مِن القواطع عنها، المؤخّرة لها.

9- لابنِ القيّمِ في (الوابل الصيِّب) (٨٤-١٦٧) كلامٌ طويلٌ جدًّا في بيانِ فوائدِ الذِكرِ، أَوصلَها إلى أَكثرَ من سبعين فائدةً.

وفي بعض منها (ص ٨٥) نقلٌ عن شيخِ الإسلامِ ابن تيميةَ قولَه: ((الذكرُ للقلبِ مثلُ الماءِ للسمكِ، فكيفَ يكونُ حالُ السمكِ إذا فارقَ الماءَ؟)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقامات، وفيه من الفوائد ما لا يُحصى، ومن الفضائل ما لا يُعدّ ولا ينقضي، قال اللهُ تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً r وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً [الأحزاب: ٤١ - ٤٢]﴾.

وقالَ النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم برجلٍ – قالَ -: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَوْصِنِي؟ قَالَ: ((لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ))[١٠].

وقال: ((سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ)) قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ))[١١].

ولي من أبيات[١٢]:

وكنْ ذاكراً في كلّ حالةٍ * * *فليسَ لِذِكرِ الله وقتٌ مُقيِّدُ

وفي (ص٨٥-٨٦) قالَ: (وحضرتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية مرّةً صلّى الفجرَ، ثمّ جلسَ يذكرُ اللهَ – تعالى – إلى قريبٍ من انتصافِ النهارِ، ثمَّ التفتَ إليَّ، وقالَ: هذه غدوتي، ولو لم أتغدّ هذا الغداءَ سَقَطت قوّتي).

10 – رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وأحمد (٤/ ١٩٠)، وابنُ حبان (٢٣١٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٠١)، عن عبد الله بن بُسْرٍ بسندٍ حَسَنٍ.

11 – رواه مسلم (٢٦٧٦) عن أبي هريرةَ.

و(المفردون) هم : المُنقطعون عن الناس بذكر الله.

كما قال ابن الأعرابي، فيما نقلَه عنه الحُميديّ في (تفسير غريب ما في الصحيحين) (٣٧٣).

12 – وقد ضمَّنَ المصنف أبياتَه – هذه – معاني عدّة أحاديث نبوية صحيحة، أَكتفي بهذه الإشارة عن تخريجها فيه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فَذِكرُ إله العرش سرًّا ومُعْلناً ** يُزيلُ الشَّقا والهمَّ عنك ويَطرُدُ

ويجلبُ للخيرات دَيْناً واجِلاً ** وإنْ يَأْتِكَ الوسواسُ يوماً يُشرَّدُ

فقد أَخبر المُختارُ يوماً لصحبِهِ ** بأنَّ كثيرَ الذكر في السبق مُفْرِدُ[١٣]

ووصَّى معاذاً يستعينُ إِلهَهُ ** على طكرِهِ والشكرِ بالحسن يَعبُدُ

وأوصَى لشخص قد أَتَى لنصيحةٍ ** وقد كانَ حملِ الشرائعِ يُجهَدُ

بأَنْ لم يَزَلْ لسانُكَ هذِه ** تُعينُ على كلِّ الأمورِ وتُسعِدُ

وأَخبرَ أنَّ الذكرَ غَرسٌ لأَهلِهِ ** بجنَّاتِ عدنٍ والمساكنُ تُمْهَدُ

وأَخبرَ أنَّ اللهَ يذكرُ عبدَهُ ** ومعْهُ على كلِّ الأمورِ يُسَدِّدُ

وأخبرَ أنَّ الذِّكرَ يبقى بجنبِهِ ** وينقطعُ التكليفُ حينَ يُخَلَّدُ

ولو لم يكنْ في ذِكرِهِغير أَنَّه ** طريقٌ إلى حبِّ الإلهِ ومُرشِدُ

وينهى الفتى عن غِيبةٍ ونميمةٍ ** وعن كلِّ قولٍ للديانةِ مفسدُ

لكانَ لناَ حظٌّ عظيمٌ ورغبةٌ ** بكثرةِ ذكرِ اللهِ نِعْمَ المُوحَّدُ

ولكنَّنا من جهلنا قلَّ ذِكرُنا ** كما قلَّ منَّا للإلهِ التَّعَبُّدُ

وذِكرُ الله نورٌ للذاكر، في قلبه، وفي قوله، وفي قبره، ويومَ حضره.

والله المُستعانُ.

٦. يتقرَّبون إلى المليك بفعلِهم ** طاعاتِهِ والتركِ للعصيانِ

13-قال النووي في (الأذكار) (١/ ٧٠): (رُوي: المفرِّدون) بتشديد الراءِ وتخفيفها، والمشهور الذي قالَه الجمهورُ: (التشديدُ).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

• هذه الأعمالُ التي تُقرّبُ إلى الله، وتُوصلُ إليه، وهو فعلُ طاعته، لا سيّما الفرائضَ، وتركَ معاصيه، كما في الحديث القُدُسي: ((. . . وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ))[١٤].

فلهذا قلتُ:

٧. فِعلُ الفرائض والنوافل دَأْبُهم***مع رؤية التقصير والنقصانِ

• هذا هو الكمالُ: وهو أنْ يجتهدَ في أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، ويرى نفسَه مقصّراً مُفَرّطاً، فاجتهادُهُ في الأعمال ينفي عنه الكسلَ، ورؤيةُ تقصيره ينفي عنه العُجْبَ الذي يُبطلُ الأعمالَ ويُفسدُها.

٨. صَبَرُوا النفوسَ على المكاره كلّها***شوقاً إلى مافيه من إحسانِ

• الصبرُ[١٥]: هو حبسُ النفس على ما يكرهُ الإنسانَ إذا كان فيه رِضى الرحمن.

14- رواه البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة.

15- قال الإمامُ ابنُ القيّم في (المدارج) (٢/ ١٥١): ((هو واجبٌ بإجماعِ الأمّة، وهو نصفُ الإيمانِ، فإنَّ الإيمانَ نِصفان: نِصفٌ صبرٌ، ونِصفٌ شكر)).

وقال في (عدة الصابرين) (ص ١٧): ((وحقيقةُ الصبرِ أنّه خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاقِ النَّفس، يُمتنَعُ به من فعلِ ما لا يَحْسُنُ ولا يَجْمُلُ، وهو قوّةٌ من قوى النَّفْسِ، التي بها صلاحُ شأنها، وقِوامُ أمرها)).

وانظر (طريق الهجرتين) (٣٣٩-٣٥٨) له -رحمه الله-.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والصبرُ ثلاثةُ أقسام: صبرٌ على طاعة الله حتّى يُؤدِّيَها، وصبرٌ عن نعاصي الله حتّى يتركَها، وصبرٌ على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسفَّهُها، فإذا كَسِلتْ نفسُهُ عن طاعة الله حثَّها عليها، وأَلزَمَها، ورَغَّبَها إيَّاها بثوابها، وإذا اشتدَّت دواعي نفسه إلى معصية الله كفَّها عنها، وحذَّرها وبَالَها، وعاقبةَ فعالها، فالصبرُ محتاجٌ إليه في كلّ الأمور.

٩. نَزَلوا بمنزلة الرِّضى فَهُمُ بها*** قد أَصبحوا في جَنَّـةٍ وأمانِ

• منزلةُ الرّضى أعلى من منزلة الصبر[١٦]، فإنَّ الصبرَ حبسُ النَّفس وكفُّها على ما تكرهُ، مع وجود منازعةٍ فيها.

وبالرِّضى تضمحلُّ تلك المنازعةُ، ويرضى عن الله رضى مطمئنٍّ منشرح الصدر، بل رُبّما تلذَّذَ بالبلاء كتلذُّذ غيره بالرخاء[١٧].

وإذا نزلَ العبدُ بهذه المنزلة طابتْ حياتُهُ، وقرَّتْ عينُهُ.

ولهذا سُمِّيَ الرّضا (جَنَّةَ الدنيا ومُستراح العابدينَ)[١٨]، ومنْ رَضيَ عن الله رضيَ اللهُ عنه، ومَنْ رضيَ عن الله باليسير من الرّزق، رضيَ اللهُ عنه باليسر من العمل.

---

16 - نقل ابنُ القيم في (المدارج) (٢/ ١٧٠) عن شيخِهِ شيخِ الإسلامِ ابن تيمية قولَه: ((لم يجيء الأمرُ بالرضّا كما جاء الأمرَ بالصبرِ، وإنّما جاءَ الثناءُ على أضصحابِه، ومدحُهم)).

17 - روى ابنُ ماجه (٤٠٢٤)، والحاكمُ (٤/ ٣٠٧)، وابنُ سَعْد (٢/ ٢٠٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - ضمن قصّةٍ - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: ((أَشَدُّ بَلَاءً قَالَ الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ)).

وصحَّحه البوصيري في (مصباح الزجاجة) (٣/ ٥٤٠ - بتحقيق).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فحقيقةُ الرّضى تَلَقّ] أحكامِ الله الأمريَّة الدينيّة، وأحكامِه الكونيّة القدَريّة بانشراح صدرٍ، وسرور نفسٍ، لا على وجه التكرُّه والتلمُّظ.

١٠. شكروا الّذي أَوْلى الخلائقَ فضلَهُ*** بالقلب بالأَقوال والأركانِ

• الشكرُ[١٩] يكونُ بالقلب، وهو: الاعترافُ بنعم الله، والاقرارُ بها، وعدمُ رؤية نفسه لها أهلاً، بل هي محضُ فضل ربّه.

ويكونُ باللسان، وهو الثناءُ على الله بها، والتحدُّثُ بها.

ويكونُ بالجوارح، وهو كفُّها عن معاصي الله، والاستعانةُ بنعمه على طاعته، فإن أَعطاهُ شيئاً من الدنيا شَكَرَهُ عليه، وإنْ زوَى عنه شيئاً منها شكرهُ أيضاً، إذْ ربَّما كانت نِعمتُهُ عليه صارفةً منه شرًّا أَعظمَ منها، وإنْ وفّقَه لطاعةٍ من الطاعات رأى المِنّةَ لله في توفيقه لها وشَكَرَهُ عليها.

واللهُ المُستعانُ.

١١. صَحِبُوا التوكُّلَ في جميع أُمورهم*** مع بذل جَهدٍ في رضى الرحمنِ

18- قال ابنُ القيّم في (المدارج) (٢/ ١٧٢) – بعدَ كلامٍ -: ((ولذلك كانَ الرّضى بابَ الله الأعظمَ، وجَنّةَ الدنيا، ومُستراحَ العارفين، وحياة المحبّين، ونعيم العابدين، وقُرّة عيونِ المُشتاقين)).

19- قال ابنُ القيّم في (المدارج) (٢/ ٢٣٢): ((ومنزلةُ الشكرِ من أَعلى المنازلِ، وهي فوقَ منزلة (الرضى) وزيادة، فالرضى مندرجٌ في الشكرِ، إذ يستحيلُ وجودُ الشكرِ بدونه. . وقد أَمرَ اللهُ به، ونهى عن ضدِّه، وأثنى على أهلِهِ ، ووصفَ به خواصَّ خَلَقِهِ، وجعلَه غايةَ خَلْقِه وأَمرِه، ووعد أَهلَه بأَحسنِ جزائِهِ)) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

• يكمُلُ العبدُ في هذين الأمْرَيْن، وهما: التوكُّل على الله، والاجتهادُ في طاعة الله، ويتخلَّفُ عن العبد الكمالُ بَفَقْدِ واحدٍ منهما.

فحقيقةُ التوكُّل تجمعُ أَمرين: الاعتمادَ على الله، والثقةَ بالله، فيعتمدُ على ربّه بقلبه في جلب ما ينفعُهُ في أَمر دينه ودنياه، فَيَبْرَأُ من نفسه وحَولِها وقُوَّتِها، ويثِقُ بالله في حصولما ينفعُهُ، ودفْع ما يضرُّهُ، ويجتهدُ في الأسباب التي بها يتوصَّلُ إلى المطلوب.

وتفصيلُ ذلك: أَنَّهُ إذا عزمَ على فعل عبادةٍ بَذَلَ جهدَهُ في تكميلها وتحسينها، ولا يُبْقي من مجهوده مقدوراً، وتبرَّأ من النَّظر إلى نفسه وقوَّتها، بل لجأ إلى ربّه، واعتمدَ عليه في تكميلها، وأَحسنَ الظنَّ، ووثقَ في حصول ما توكَّلَ به عليه.

وإذا عزمَ على ترك معصيةٍ – قد دعتْهُ نفسُهُ إليها – بَذَلَ جهده في الأسباب الموجبة لتركها – من التفكُّر بها، وصَرْف الجوارح عنها–، ثمَّ اعتمدَ إلى الله، ولجأَ إليه في عصمته منها، وأَحسنَ الظنَّ به في عصمته له، فإنَّه إذا فعلَ ذلكَ في جميع ما يأتي ويَذَرُ، رُجِيَ له الفلاحُ – إن شاءَ اللهُ تعالى –

وأمّا مَن استعانَ بالله وتوكَّلَ عليه ، مع تركه الاجتهادَ اللازمَ له، فهذا ليسَ بتوكُّلٍ، بل عجزٌ ومهانةٌ.

وكذلكَ مَن يَبذلُ اجتهادَهُ، ويعتمدُ على نفسه، ولا يتوكَّلُ على ربِّه، فهو مخذولٌ.

١٢. عبدوا الإلهَ على اعتقاد حضورِهِ*** فتبوّءوا في منزل الإحسانِ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

• هذه المنزلةُ يقالُ لها: منزلةُ الإحسان[٢٠]، وهي – كما فسَّرَها النبيُّ -: ((أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))[٢١]، فإذاَ تصوَّر الإنسانُ هذا المقامَ في جميع أحواله – لا سيّما حال العبادة -: مَنَعَهُ من الالتفات بقلبه إلى غير ربّه، بل أَقبلَ بكُلِّيَّتِهِ على الله، وتوجَّهَ بقلبه إليه، مُتأدِّباً في عبادته، آتِياً بجميع ما يكمّلُها، مجتنباً كلَّ مُنْقِصٍ لها.

وهذه المنزلةُ من أعظم المنازل وأَجَلّها ، ولكنّها تحتاجُ إلى تدريجٍ للنفوس شيئاً فشيئاً.

ولا يزالُ العبدُ يُعوّدها نفسَه حتّى تنجذبَ إليها وتعتادَها، فيعيشَ العبدُ قريرَ العين بربّه، فرِحاً مسروراً بقُربه.

١٣. نصحوا الخليقةَ في رضى محبوبهم***بالعلم والإرشاد والإحسانِ

١٤. صحبوا الخلائقَ بالجُسوم وإنَّما*** أَرواحُهم في منزلٍ فَوقاني

• هذه حالُهم مع الخَلق، أَكملُ حالٍ وأَجلُّها، فأَبدَوا لهم غايةَ النُّصح، وأَحبّوا لهم ما أحبُّوا لأَنفسهم من الخير، وكرهوا لهم ما كرهوا لأَنفسهم من الشرّ، فَسَعَوْا في إزالة الشرّ عنهم بكلّ ممكنٍ، واجتهدوا في إيصال النفع إليهم بكلّ مقدورٍ، مِن أَمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإطعام جائعهم، وكسوة عاريهم، وإغاثة ملهوفهم،

---

20 – قال ابنُ القيّم في (المدارج) (٢/ ٤٢٩): ((هي لُبُّ الإيمان، ورُوحُهُ، وكماله، وهذه المنزلةُ تَجمَعُ جميعَ المنازلِ، فجميعُها مُنطويةٌ فيها)).

21 – رواه البخاري (٥)، ومسلم (٩) عن أبي هريرة.

ورواهُ مسلمُ (٨) عن عُمر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعليم جاهلهم، ورَدع ظالمهم، ونصر مظلومهم، واحتمال أذاهم، وكفّهم أذى أَنفسهم عنهم، ومع هذا فصُحبتُهُم لهم بالظاهر والجسم.

وأمّا قلوبُهم وأرواحهم: فإنّها تجُولُ حولَ الحبيب، وتطلبُ مِن قُربه أضعظمَ نصيب، فتارةً تنكسرُ بينَ يديه، وتخشعُ وتخضعُ لديه، وطوراً تشكرهُ بحبّه، وتُدِلُّ عليه لاستحضار بِرّهِ وُثربِهِ، ثمَّ تميلُ إلى مراضيهِ، فتجتهدُ في عباداته، وتُحسنُ إلى مخلوقاته، فهؤلاء هم النّاسُ، بل هم العُقلاءُ الأكياسُ.

ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاّ بالله.

١٥. بالله دعواتُ الخلائق كلّها***خوفاً على الإيمان مِن نقصانِ

• هذه منزلةُ الرِّعاية [٢٢] لحقائق الإيمان ومشاهد الإحسان، وذلك أنَّ العبدَ لا ينبغي له أنْ يُعرِضَ عن تدبُّر أَحواله، والتفكّر في نقص أَعماله، بل يبذلُ جُهدَهُ قبلَ العمل، وفي نفس العمل – وتصحيحه وتحسينه –، ثمَّ يصونُهُ من المفسدات، ويُنزّهُهُ عن المُنَغِّصَاتِ، فإنَّ حفظَ العمل أعظمُ من العمل، فكلما ازدادَ العبدُ رعايةً لعمله واجتهاداً فيه ازدادَ إيمانُهُ، وكلَّما نقصَ من ذلكَ نَقَصَ من إيمانه بحسبه.

---

22 – قال ابنُ القيّم في (المدارج) (٢/ ٦٠):

((هي مُراعاةُ العلمِ وحِفْظُهُ بالعمل، ومُراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحِفظُه من المُفسدات، ومُراعاة الحال بالموافقةِ/ وحِفظُهُ بقطعِ التفريقِ، فالرعايةُ صيانةٌ وحفظٌ)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن أعظم ما ينبغي مراعاتُهُ في العمل مشهدُ الإحسان، وهو: الحرصُ على إيقاع العبادة بحضور قلبٍ وجمعيّته على الله، كذلك مراعاةُ مِنّة الله على العبد، وأنّه ينبغي له أنْ يشكرَ الله على توفيقه لذلكَ العملِ أعظمَ شكرٍ.

وكذلكَ مراعاةُ الخوف والرجاء، يخافُ من ردّها بعُجبٍ أو رياءٍ أو تكبُّرٍ بها، أَ، عدم قيام بحقّها، أو غير ذلك، ويرجو قَبولَها برحمة ربّه ومَنّه وإحسانه إليه، الّذي من جملته توفيقُهُ لها.

١٦. عَزَفُوا القلوبَ عن الشواغل كلّها*** قد فرَّغوها من سوى الرحمنِ

١٧. حَـرَكاتُهم وهمومُهـم عُزومُهـم***لله لا للخَلـق والشيطـانِ

- أي: فرَّغوا قلوبَهم عن جميع ما يَشْغَلُ عن الله، ويُبعِدُ عن رضاهُ، وهذا حقيقةُ الزُّهد[٢٣].

ولا يكفي هذا التفريغُ حتّى يمتلئَ القلبُ من الأفكار النافعة والعُزوم الصادقة، فتكونَ أفكارُ العبد في كلّ ما يقرّبُ إلى الرحمن – من تصوُّر علمٍ، وتدبُّر قرآنٍ، وذكرِ الله – بحضور قلبٍ، وتفكُّرٍ في عبادةٍ وإحسانٍ، وخوفٍ من زلّةٍ وعصيانٍ، أو تأمُّلٍ لصفات الرحمن،

---

23 – نقلَ ابنُ القيِّم في (المدارج) (٢/ ١٢) عن شيخِه شيخ الإسلام ابن تيمية قولَه: ((الزهد: تركُ ما لا ينفعُ في الآخرةِ، والوَرَع: ترك ما يُخاف ضَرَرُهُ في الآخرة)).
ثم قال ابنُ القيّم: ((وهذه العبارةُ من أَحسنِ ما قيلَ في الزُّهدِ والوَرَعِ، وأَجمعِها)).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتنزيهِهِ عن جميع العيوب والنُّقصان، أو تفكُّرٍ في القبر وأحواله، أو يوم القيامة وأهواله، أو في الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها.

فأفكارُهم حائمةٌ حولَ هذه الأُمور، متنزِّهةٌ عن دنيّات الأمور، والتفكّر بما لا يُجدي على صاحبه إلاّ الهمَّ والوَبالَ، وتضييعَ الوقت، وتشتيتَ البال، غيرَ نافعٍ للعبد في الحال والمآل.

١٨. نِعْمَ الرفيقُ لطالب السُّبْل التي**تُفضي على الخيرات والإحسانِ

• قهؤلاء هم الَّذينَ يَسْعَدُ بهم رفيقُهم إذا اقتدى بسلوك سَيْرِهم فريقُهم.

وهؤلاء الّذينَ أَمَرَنا اللهُ أنْ نسألَه أنْ يهدِيَنا طريقَهم إذ أنعمَ عليهم بصدق إيمانهم وتحقيقهم.

فنسأل اللهَ أنْ يهدِيَنا الصراط المستقيمَ، صراطَ الذينَ أَنعمَ عليهم: (**مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً** [النساء: ٦٩])، وأنْ يُجَنِّبَنا طُرُقَ الغضب والضلال المُوصِلَةَ إلى الخِزي والوَبال، إنَّه أَكرَمُ الأَكرمينَ، وأَرحَم الرَّحمينَ.

واللهَ أَسأل – وبأسمائه الحسنى وصفاته ونعمه أَتوسَّل – أنْ لا يحرمَنا خيرَ ما عندَهُ من الإحسان والغُفران، بِشَرِّ ما عندنا من التقصير بحقوقه والعصيان، وأنْ يجعلَه خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز عندَه في جنّات النعيم.

والحمدُ لله ربّ العالمين، أوَّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، حمداً كثيراً مُبارَكاً فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعِزّ جلاله.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصلَّى اللهُ على محمدٍ النبيّ الأُميّ المبعوث رحمةً للعالمينَ، وعلى آله وصحبه أَجمعينَ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً[٢٤].

كتبه: الراجي عفو ربه والمحب للشيخ علي حسن

ناصر الدين أبو تقي الدين الجزائري

24- تمَّ الفراغُ مِن ضَبطِ نصِّ هذه المنظومةِ والتعليقِ عليها، وكَتْب ما يُحتاجُ إليه – عليها -: صبيحةَ يومَ السبت ١٦ رمضان ١٤١٧ هـ، والله الموفِّقُ لكلِّ خيرٍ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com